9 مدارس الموت

خط رسول الله ﷺ خطوطه، فاستيأس الأمل، فبات الأصحاب يحبون أحب الأمرين إلى الله: حياتهم أو الموت.

إلا الفاروق عمر رضي الله عنه فإنه جمع بين هجر الأمل، والجزع من الموت وكراهته، فاتحًا بجمعه هذين النقيضين بابًا يلج الموفق منه إلى زيادة في فقه الدعوة. وذاك حين طعنت المجوسية أبا حفص طعنتها، فثعب جرحه دمًا كثيرًا أخرجه إلى جَزَعٍ وافقَ دخولَ عبدالله بن عباس رضي الله عنهما عليه، فَفَغَر فاه مستغربًا، فقال عمر: **" أما ما ترى من جزعي، فهو من أجلك وأجل أصحابك "** (١).

و بهذه الحروف اختتم رضي الله عنه سيرة أتعبت كل دعاة الإسلام من بعده.

فالحياة يطلبها الغيور طلبًا، ويجزع لورود الموت جزعًا، لما سيحول بينه وبين خدمة المسلمين والقيام بأمور دعوة الإسلام.

وغدا هذا المفهوم، بهذا المقدار، يمثل الوجه الآخر للتربية الحركية الكابحة لانطلاق الآمال الدنيوية، يمارس الداعية خلال نظره المتكرر إليها إيجابية تبعده عن يأس سلبي وتزهيد بالعمل يسببه نظر ناقص إلى مجرد كبت الآمال.

---

(١) صحيح البخاري ٥/ ١٦.

* مدرسة الكوفة تواصل الذكرى

ولئن كشفت هذه الكلمات في نهاية خلافة عمر - من جانب - للغافلين سر ما رآه المسلمون منه من تعب وسهر وتفكر، فتأهبوا للاقتداء، فألهاهم عبدالله بن سبأ زمن عثمان رضي الله عنه وأذهلهم، فإن تشميرًا رآه الناس في بداية خلافة علي رضي الله عنه كان بحاجة - من جانب آخر - بعد ذاك الذهول، إلى كلمات أخرى تعظهم، وتعيب عليهم أملًا وجد له أثناء سنوات الفتنة مجال نمو، بردت معه همم المقتدين.

ومن هذه الحاجة نشأت مدرسة الكوفة في التذكير بالموت، إذ طفق علي رضي الله عنه يجمع الناس في مسجد عاصمته، ويصارحهم ويقول: **" إنما أخشى عليكم اثنين: طول الأمل، واتباع الهوى؛ فإن طول الأمل يُنسي الآخرة، وإن اتباع الهوى يصد عن الحق "** [1].

وتنتدب جمهرة من فقهاء أصحابه نفسها لمعاونته، فيقوم الصحابي الأغلب بن جشم العجلي بعده، فينشد بين يديه قصيدته التي مطلعها:

المرء توّاقٌ إلى ما لم ينل والموت يتلو، ويلهيه الأمل

فيتلوه سيد زهاد التابعين: أُويس بن عامر القرني، فيقول: **"يا أهل الكوفة: توسّدوا الموت إذا نمتم، واجعلوه نصب أعينكم إذا قمتم "**.

---

(١) الزهد لابن المبارك / ٨٦.

حتى إذا قُتل علي بعدما خشعت القلوب وادكرت استمرت ثلة من أصحابه على سمته في الوعظ، فكان الربيع بن خثيم يقول لهم:

" **أكثروا ذكر هذا الموت الذي لم تذوقوا قبله مثله** " [١]. ويحفر له قبرًا، ويأخذ ينزل فيه كل يوم يتمدد، ثم يقوم يذكر لهم مشاعره لما يكون بقعره.

ويذكر سعيد بن جبير لهم مقدار تصفية كلمات علي لقلبه، فيقول: " **لو فارق ذكر الموت قلبي خشيت أن يفسد عَليَّ قَلبي** " [٢].

وكل هؤلاء: سعيد، والربيع، وأويس، رحمهم الله، والأغلب رضي الله عنه من ثقات أهل الكوفة الذين رباهم علي رضي الله عنه فلما ماتوا أورثوها لآخرين يحفظون للكوفة سمتها، فكان عون بن عبدالله بن عتبة بن مسعود الهذلي يرتقي المنبر ويسألهم:

" **كم من مستقبل لا يستكمله، ومنتظر غدًا لا يبلغه، لو تنظرون إلى الأجل ومسيره، لأبغضتم الأمل وغروره** " [٣].

فإذا نزل: صعد عمر بن ذر، فخطبهم:

" **أما الموت فقد شَهَرَ لكم، فأنتم تنظرون إليه في كل يوم وليلة، من بين منقول عزيز على أهله، كريم في عشيرته، مطاع في قومه، إلى**

---

(١) طبقات ابن سعد ٦ / ١٨٤.

(٢) الزاهد لأحمد بن حنبل / ٣٧١.

(٣) الزهد لابن المبارك ٤.

حفرة يابسة وأحجار صُم، ليس يقدر له الأهلون على وِساد إلا خالطه فيه الهوام، فوساده يومئذ عمله، ومن بين مغموم غريب، قد كثر في الدنيا همّه، وطال فيها سعيه، وتعب فيها بدنه، جاءه الموت قبل أن ينال بغيته، فأخذه بغتة، ومن بين صبي مرضَع، ومريض موجَع، ورهن بالشر مُولَع، وكلهم بسهم الموت يُقرع ".

فلما مات هؤلاء النفر، واجتمع علمهم وعلم شيوخهم عن علي في سفيان الثوري: تولاها طريقة، واتخذ الموت نشيدًا، حتى قال أحد تلامذته: **" ما جلست مع سفيان مجلسًا إلا ذكر الموت، وما رأيت أحدًا أكثر ذكرًا للموت منه "** [1].

وهكذا أعطت مشيئة الله تعالى لمدرسة الكوفة من بعد عمر بن الخطاب دَورها في رقابة سواء سبيل أمة الإيمان، وحفظه من الانحراف وطغيان الآمال، وشَرفها، فتمثلت بها بقية نهي عن الفساد، تكثر حينًا، أو تقل من دون انقراض، ليست دعوة الإسلام المعاصرة غير استرسال في كفالة القدر لوجودها، وما وراثتنا لها إلا وراثة قربى في النسب واشتراك في المورد.

* فبرز لها بالشام عمر

وكان الذي رويناه من استدراك عمر بن عبدالعزيز في أواخر المائة الأولى حلقة ضمن دعوة البقية الرقيبة على سير القرون،

---

(١) تاريخ بغداد ٩/ ١٥٧.

اتصلت بمدرسة علي الكوفية عن طريق عون ابن عبد الله، وعمر ابن ذر، وأعشى همدان الشاعر، الآنف ذكرهم، اتصالًا اعتياديًا كما هو شأن العلم في تقلبه في البلاد، وشأن البقية الناهية في تقلبها عبر القرون، لكنها حلقة استطاعت أن تستأثر بحيازة إعجازين قصرت عنهما الحلقات التي بعدها:

* إعجاز أكسبه إياها موضع الخلافة العالي، فشخصت القدوة المهابة من بعد بعض انقطاع، فتسارع الإصلاح، فاختصر الزمان، فكانت هنيهة قصيرة أثرت دهورًا طويلة.

* وإعجاز بلاغي آخر، وليد تفكر وعمر، وربيب نغمة من فصاحة عربية كانت ما تزال تنساب من فيه، بها فضح عيب تمتع جيله بأسلاب الهالكين، وبها راد لقرون تليه خبر موت أعمله حدسه أنها ستكون عنه من اللاهين، فحدثها حديث صدق عن:

(قبور خرقت الأكفان، ومزقت الأبدان، ومصّت الدم، وأكلت اللحم. تُرى: ما صنعت بهم الديدان؟ مَحَت الألوان، وعفرت الوجوه، وكسرت الفقار، وأبانت الأعضاء ومزقت الأشلاء.

تُرى: أليس الليل والنهار عليهم سواء؟

أليس هم في مدلهمة ظلماء؟

كم من ناعم وناعمة أصبحوا وجوههم بالية، وأجسادهم عن أعناقهم نائية، قد سالت الحدق على الوجنات، وامتلأت الأفواه دمًا

وصديدًا، ثم لم يلبثوا والله إلا يسيرًا، حتى عادت العظام رميمًا. قد فارقوا الحدائق، فصاروا بعد السعة إلى المضائق).

ثم راح ينادي حتى صحل صوته: (يا ساكن القبر غدا، ما الذي غرك من الدنيا؟

أين دارك الفيحاء؟

و أين رقاق ثيابك؟

ليت شعري كيف ستصبر على خشونة الثرى، وبأي خديك يبدأ البلى؟)

وبمثل هذا: استأسر فقهاء الأمصار لعمر، فجمع قلوبهم حوله، وجعلهم له أعوانًا في تعميم رشده، وأخرجهم إلى مشاركة جماعية في تعليم الأمة وتربيتها، متناسقة مع أسلوبه، أغنت حكمه عن سيف وحساب، واستثمر بها طاقات خير دفينة مغروسة في أصل فطرة الناس، قدم لها منه القيادة، فقدمت له منها المتابعة.

* مدرسة البصرة تؤيد

ولئن أسرع عنبسة أو القرظي الاستجابة لعمر، في أرهاط من الشاميين والمدنيين، فإن الحسن البصري، عبر عن سيادته الجيل الأوسط من التابعين طرًا، وبتأثير ما اقتبسه من علي ومدرسته الكوفية، قد أنزل البصرة مكانة التقدم في التأثير التربوي في الأمة من قبل أن يحكم عمر، مكنها من بعد أن تسبق الربوع الأخرى في إعادة

رسم خطوط حصار الأمل، ورواية قصة الرقاد الطويل، وتأكيد مذهب عمر وترويجه، حتى غدت مواعظ الحسن أداة تربوية، تكتب في نسخ وتوزع مع بريد الخلافة كما توزع الصحف اليوم، فيجد المسلم المرابط في أقصى الثغور في شدة نبراتها حماسة يهتز بها للشهادة قلبه، تعادل رقة يرجف لها بدن المتعلم العاكف، والساذج المزارع، والتاجر الساعي.

وهكذا وافقت دمعات الرشد فهمًا لدى إمام البصرة، وبدأت الآمال تقصر بمآل إلى الردى، يصوره الحسن ويحذرها أهوالًا تستقبلها ليست سكرات الموت إلا بواكر حسابها وعَتب أبوابها، فراح ينادي:

(المبادرة، المبادرة.

فإنما هي الأنفاس لو حسبت: انقطعت عنكم أعمالكم ، إنكم أصبحتم في أجَل منقوص، والعمل محفوظ، والموت – والله– في رقابكم، والنار بين أيديكم، فتوقعوا قضاء الله عز وجل في كل يوم وليلة.

لقد فضح الموت الدنيا، فلم يترك لذي لُب فرحًا

وإن أمرًا هذا الموت آخره، لحقيق أن يُزهد في أوله.

وإن أمرًا هذا الموت أوله، لحقيق أن يُخاف آخره) [1].

---

(1) الزهد لأحمد بن حنبل / ٢٨٥ ومصادر أخرى.

* ميزان بصري في فقه الدعوة

وصاغ الحسن خلال ذلك ميزانًا إيمانيًا يقدم له الواقع المرئي كفاية من دلائل الإقناع، ربما نشتق له اسم (**ترجيح التخويف**)، ساقه في صورة خطاب، فقال: " **إنك والله لأن تصحب أقوامًا يخوفونك حتى تدرك أمنًا، خير لك من أن تصحب أقوامًا يؤمنونك حتى تلحقك المخاوف** " [1].

وهو ميزان يمثل بعضًا مما أضافه الحسن إلى فقه الدعوة. فالخوف العاجل عنده، المؤدي إلى التقوى، المؤدية إلى أمن آجل في ظلال الجنان: خير من مدٍّ عريض للنظر إلى صفات الله سبحانه في الرحمة واللطف والغفران.

وكلًا من الحالتين تُراد، والأمر في حقيقته معلق بنسبية واضحة، ربما أوجبت تخفيف رهبة البعض بأبواب من الرجاء أغلقتها عليهم شدة الخشية، ولكن هذا المعدن فريد، والغرور يلف الجمهرة العظمى، وما من دواء له إلا الإخافة بقصة التلال الهامدة.

و في التنبيه على هذه النسبية يقول ابن الجوزي:

" **إذا رأينا أرباب الدنيا قد غلبت آمالهم، وفسدت في الخير أعمالهم أمرناهم بذكر الموت والقبور والآخرة، فأما إذا كان العالم لا يغيب عن ذكره الموت، وأحاديث الآخرة تُقرأ عليه، وتجري على لسانه، فتذكاره الموت زيادة على ذلك لا تفيد إلا انقطاعه بالمرة.**

---

(1) الزهد لابن المبارك / ١٠٢.

بل ينبغي لهذا العالم الشديد الخوف من الله تعالى، الكثير الذكر للآخرة، أن يشاغل نفسه عن ذكر الموت، ليمتد نَفَسَ أمله قليل، فيصنف، ويعمل أعمال خير " [1].

* مدرسة بغداد تجنح للبساطة

وقد أضافت المدرسة البغدادية من بعد تلك المدارس تطويرًا مهمًا إلى فقه الزهد وكبت الآمال.. يوم أدخلت عنصر البساطة في التذكير على لسان رائدها بشر بن الحارث الحافي، لما أتاه آت وطلب منه الموعظة فقال له:

" إن في هذه الدار نملة تجمع الحبَّ في الصيف، فتأكله في الشتاء، فلما كان يومٌ أخذت حبة في فمها، فجاء عصفور فأخذها والحبّة، فلا ما جمعت أكلت ولا ما أمَّلت نالت " [2].

هذه هي الحياة عند بشر: إنسان يجمع، فيأتيه الموت، فيأخذه وما جمع.

هكذا، بلا أبيات شعر، ولا ألوان من الجناس والبديع نطلبها اليوم تشغلنا عن جوهر المواعظ.

لأولي الألباب كفاية بيوميات العصفور والنمل.

ثم بلغت هذه البساطة البغدادية ذروتها لما تولى الإمام أحمد زمام التربية، فذهب فيها لأبعد مما ذهب قرينه بشر، فسكت، حتى أن

---

(١) صيد الخاطر / ١٥٨ طبعة الغزالي.

(٢) تاريخ بغداد ٣/ ٣٢١.

الكتب تكاد ألا تورد له في المواعظ قولًا، وعوّض تلامذته وأجيال الأمة عن ذلك بوجه معبر كأنه يطلع إلى القيامة، وصبر على العذاب والإغراء ثبتت به الأمة إزاء دعاية المبتدعة، وسيرة في التعفف والتقلل تستحي منها نوايا الإثراء.

فلما مات سنة إحدى وأربعين ومائتين، وانتقل شيخ البخاري الحسن بن عبدالعزيز الجروي من مصر إلى بغداد وسكنها، وصار في عداد البغداديين: رأى ضرورة استمرار القدوة الصامتة، فلم يأخذ من إرث أبيه شيئًا، لشبهة خالطته، وقال: **" من لم يردعه القرآن والموت فلو تناطحت الجبال بين يديه لم يرتدع "** [1].

قال صاحب تاريخ تنيس: **" وكان أبوه ملكًا على تنيس، ثم أخوه علي، ولم يقبل الحسن من إرث أبيه شيئًا، وكان يُقرن بقارون في اليسار "** [2].

* التربية بالاعتراف:

وطفق المربون بعد أحمد والحسن الجروي يمارسون طريقتين في التربية: فمن حاز مرتبة أحمد وزهده وورعه وحياة قلبه قلَّده في سكوته، وترك حاله تخبر الأبصار.

ومن لم يحز مثل سمو أحمد، ولبث دون ذلك سلك طريقة الاعتراف، فيستفزُّ الأسماع، كما استفزها الخليفة العباسي الراضي بالله، لما جمع ببغداد الغافلين، وحاول من بعد المتوكل أن يتشبه بعلي

(١) طبقات الحنابلة ١/ ١٣٥.

(٢) تهذيب التهذيب ٢/ ٢٩٢.

وعمر بن عبدالعزيز ويقلد طريقتها، فراح ينشد لهم من نظمه:

كل صفو إلى كَدَر ... كل أمنٍ إلى حَذر
ومصير الشباب للموت ... فيه أو الكبر
أيها الآمل الذي ... تاه في لجة الغَرَر
أين من كان قبلنا ... دَرَسَ الشخصُ والأثر
سيردُ المعارَ من ... عمرُه كله خَطر
ربّ أني ذخرت عندك ... أرجوك مُدّخر
إنني مؤمن بما ... بين الوحي في السوَر
واعترافي بترك نفعي ... وإيثاري الضَرر
رب فاغفر لي الخطيئة ... يا خَيرَ من غفر

أو كما استفزها بالأندلس آخر، حين راح يعترف:

إلى كم أقول ولا أفعل ... وكم ذا أحوم ولا أنزِل
وأزجر عيني فلا ترعوي ... وأنصح نفسي فلا تَقبل
وكم ذا تعلل لي، ويحَها ... بعل وسوف وكم تمطل؟
وكم ذا أُؤمل طول البقا ... وأغفل والموت لا يغفل؟
وفي كل يوم ينادي بنا ... منادي الرحيل: ألا فارحلوا
كأن بي وشيكًا إلى مصرعي ... يساق بنعشي ولا أُمهل [1]

(١) نفح الطيب ٤ / ٢٧٥ .

*** وبعد:**

وبعد يا داعية الإسلام.. إنَّ من جَدَّ وجد، وليس من سَهر كمن رقد. فلا تكن ممن تضمُّه الكتائب، وقلبه عن المشاركة غائب. وهذا الموت منك قيد شبر الشابر.

وهذا دبيب يُسارق نفسك ساعتها.

وإن سِلَعَ المعالي غاليات الثمن، وإنما ثمنها اتباع مدارس الكوفة والشام، ومدرسة إمام البصرة الحَسَن، فانظر لنفسك.

واغتنم وقتك.

(فإن الثواء قليل، والرحيل قريب، والطريق مخوف، والاغترار غالب، والحظر عظيم، والناقد بصير) [1].

وفقنا الله وإياك.

* * *

(١) اقتضاء العلم العمل، للخطيب البغدادي / ١٦.

10 لا يَا قيود الأرض

لئن كان الدعاة إلى الله قد فقهوا طريق الاستدراك، ورفضوا الانصياع للفساد الذي استشرى، وتمردوا على عملية الترويض، وبدأوا جهود تثبيت وتربية لأولي الفطرة الصحيحة، فإن غيرهم بات يتألم لواقع المسلمين ويتأوه، ولا يعدو إبداء الحزن، وقبع في بيته أو مسجده، يلفه اليأس، تاركًا دعاة الإسلام وحدهم في المعركة، يظن أنه بحزنه قد أبرأ ذمته، بل ربما يظن أنه قد كسب المناقب.

وليس الأمر كما ظن وإن اقترن بحزنه ما يثاب عليه ويؤجر، فإن المسلم الذي يبغي درجات الكمال يحزن لواقع المسلمين، لكنه يترك بيته وراءه ظهريًا، ويتصدى للناس، واعظًا وناصحًا ومربيًا، وخائضًا بهم دروب الجهاد.

قال ابن تيمية رحمه الله: **" قد يقترن بالحزن ما يثاب صاحبه عليه ويحمد عليه، فيكون محمودًا من تلك الجهة لا من جهة الحزن، كالحزين على مصيبة في دينه، وعلى مصائب المسلمين عمومًا، فهذا يثاب على ما في قلبه، من حب الخير وبغض الشر، وتوابع ذلك، ولكن الحزن على ذلك إذا أفضى إلى ترك مأمور من الصبر والجهاد وجلب منفعة ودفع مضرة، نهي عنه، وإلا كان حسب صاحبه رفع الإثم عنه"**[1].

---

(١) مجموع الفتاوى ١٠/ ١٧.

فافهم هذا يا من تتمنى أن يغير الله الأحوال بلا عمل منك ومن أمثالك.

وحولك من يعمل ويناديك...

أيها المشدود في تيه الأماني
خفف الآهات دع عنك التواني
لا تبالي إن بغت كف الزمان
واعتصم بالله ذا أسمى وأفضل
أنت تدري أيها الحيران عنّا
كيف فوق الشمس أزمانًا حَللنا
أيها المذهول لا تيأس فإنا
لبناء الأمة العصماء نعمل [1]

فكن من العاملين أيها المبهور.

إنك إن كنت تعرف أنا خير من يعمل، وأطهر من يتصدى، فلم تهرب منا؟

" إن الحسرة والتألم وتصعيد الزفرات ليست سوى وسيلة سلبية لا تجرح قوى الباطل - بل لا تخدشها، وهي لا بأس بها لكنها تنقلب إلى أمر بالغ الخطورة إذا لم يعقبها عمل إيجابي مثمر، إذ تكون وسيلة لامتصاص النقمة على الأوضاع الفاسدة، ومن ثم الركون إليها، وعلى أحسن الفروض: استمرار هذه النقمة، ولكن بشكل جامد لا حياة فيه

(١) لمحمود آل جعفر في حنين إلى الفجر / ١٤٠.

يؤدي إلى شلل الحركة. وليس أفضل لقوى الباطل من هذا الوضع"[1].

وإنما الصواب في كل حين أن تسلك طريق الهمة، وهو الطريق الذي وصفه قدوة العراق آخر الزمان العباسي، الشيخ عبد القادر الكيلاني رحمه الله، فكان ينادي أهل بغداد بصوته الهادر أن: **" سيروا مع الهمم العالية "** [2].

لا تتواروا ولا تنسحبوا، بل سيروا مع الهمم العالية.

ولا زال هذا الطريق هو الطريق المعبد الوحيد في خارطتنا.

أما الجبن، والانزواء، والتأوه، فصحارى مهلكة.

وجرب غيرك الأعوان، وأعطاك النتيجة، فقال:

لي معينان: همة واعتزام.

لم يجد غيرهما. وخانته بقية الأعوان.

وعونك المخلص ما أوصلك إلى اللذة الصادقة في الحياة. ومغشوش واهم ذاك الذي يظن اللذة فحسب لذة القرب من الزوجة والأولاد والأموال ونيل الترقيات الوظيفية.

و إنما السعادة في رضى الله.

و إنما اللذة لذة البذل والفداء.

---

(١) لصلاح الدين مجيد في مجلة التربية الإسلامية ٥/ ٥٩٤.

(٢) الفتح الرباني / ٢٩٨.

ونداء الشيخ عبد القادر يأتينا عبر القرون:

" أنتم غفل عما القوم فيه؛ تواصلون العَناء في الكد على النفوس التي هي عدوتكم. ترضون أزواجكم بسخط ربكم -عز وجل. كثير من الخلق يقدمون رضا أزواجهم وأولادهم على رضا الحق -عز وجل ".

وما بغير البذل ينطق قاموسنا، " لكن يغلط الجفاة في مسمى الحياة؛ حيث يظنونها التنعم في أنواع المآكل والمشارب والملابس والمناكلح، أو لذة الرياسة والمال وقهر الأعداء والتفنن بأنواع الشهوات، ولا ريب أن هذه لذة مشتركة بين البهائم، بل وقد يكون حظ كثير من البهائم منها أكثر من حظ الإنسان؛ فمن لم تكن عنده لذة إلا اللذة التي تشاركه فيها السباع والدواب والأنعام فذلك ممن ينادي عليه من مكان بعيد. ولكن أين هذه اللذة من اللذة بأمر إذا خالط بشاشته القلوب سلى عن الأبناء والنساء والأوطان والأموال والإخوان والمساكن، ورضي بتركها كلها والخروج منها رأسًا ، وعرض نفسه لأنواع المكاره والمشاق، وهو متحل بهذا منشرح الصدر به، يطيب له هجر ابنه وأبيه وصاحبته وأخيه لا تأخذه في ذلك لومة لائم، حتى أن أحدهم ليتلقى الرمح بصدره ويقول: فزت ورب الكعبة. ويستطيل الآخر حياته، حتى يُلقي قوته من يده ويقول: إنها لحياة طويلة إن صبرت حتى آكلها، ثم يتقدم إلى الموت فرحًا مسرورًا "[1].

(١) مفتاح دار السعادة ١/ ٣٥.

هذا ما نعرفه من شأن الداعية؛ لا يكون كامل العبودية لله حتى يصل إلى مثل حال إبراهيم عليه السلام لما استسلم وأطاع ووضع السكين على حلق ابنه....

وبهذا وصفه إقبال..

ليس يدنو الخوف منه أبدًا ... ليس غير الله يخشى أحدًا

لحنه في القلب نارًا اشتعلا ... من قيود الزوج والولد خلا

معرض عما سوى الله الأحد ... يضع السكين في حلق الولد (١)

إن من واجبات المسلم إزاء محاولة استئناف الحياة الإسلامية وإرجاع الإسلام إلى الهيمنة من بعد الحدث الهائل في تنحيته هي واجبات واضحة بينة، وأكثر من نراه من المسلمين المتحسرين أصحاب الأماني المتأوهين **" يكون عالمًا بها، ولا تنهض همته إليها، فلا يزال في حضيض طبعه محبوسًا، وقلبه عن كماله الذي خلق له مصدودًا منكوسًا، قد أسام نفسه مع الأنعام، راعيًا مع الهمل، واستطاب لقيمات الراحة والبطالة، واستلان فراش العجز والكسل، لا كمن رفع له علم فشمر إليه، وبورك له في تفرده في طريق طلبه، فلزمه واستقام عليه، قد أبت غلبات شوقه إلا الهجرة إلى الله ورسوله، ومقتت نفسه الرفقاء إلا ابن سبيل يرافقه في سبيله "** (٢).

---

(١) ديوان الأسرار والرموز / ٣٩.

(٢) مفتاح دار السعادة ١/ ٤٦.

فكذلك البرهان الذي يعطيه المسلم علامة لصدقة.

وكذلك حقًا تفعل الأشواق حين تصدق.

إن صاحبها حينئذ يأبى إلا الهجرة والانضمام إلى القافلة.

ويذر كل رفيق يثبطه ويزين له إيثار السلامة، إلا داعية يبثه همه، ويتعاون معه على السير في طريق الجهاد، ويعلمه علم البذل وفقه الدعوة والتبشير.

فحيهلا إن كنت ذا همة فقد حدا بك حادي الشوق فاطو المراحلا

ولا تنتظر بالسير رفقة قاعد ودعه فإن العزم يكفيك حاملا

فينتفض، ويهجر كل قاعد، ويهاجر مع المهاجرين إلى الله..... ويخطب به ابن تيمية فيقول، ويصف له الطريق واضحًا: " **الحرية حرية القلب، والعبودية عبودية القلب** "[1].

فيطرح أغلال الشهوات وحب الأموال عن قلبه ويصبح حرًا، ويعود يأبى المنخفض الخبت، ويرفض أن تواريه الوديان، ويبتغي المرتفع العالي.

ومن أراد ذلك ارتقى سلم الارتفاع والسمو: الجهاد، وفقه الدعوة.

قال تعالى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة:١١].

---

(١) مجموع الفتاوى ١٠/ ١٨٦.

" وقد أخبر سبحانه في كتابه برفع الدرجات في أربعة مواضع .

أحدها: هذا. والثاني: قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [الأنفال].

والثالث: قوله تعالى: ﴿وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ﴾[طه:٧٥].

والرابع: قوله تعالى: ﴿وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ۝٩٥ دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً﴾ [النساء].

فهذه أربعة مواضع، في ثلاثة منها الرفعة بالدرجات لأهل الايمان الذي هو العلم النافع والعمل الصالح، والرابع الرفعة بالجهاد، فعادت رفعة الدرجات كلها إلى العلم والجهاد " [1].

ولا تصل إلى هذا العلم وهذا الجهاد إلا بهمة، ومن ثم كانت الهمة باب الدخول، فمن امتلكها لان له كل صعب، واستطاع أن يعيد هذه الأمة إلى الحياة مهما ضمرت فيها معاني الإيمان.. كما قال إقبال:

همم الأحرار تحيي الرمما نفخة الأبرار تحيي الأمما

(١) مفتاح دار السعادة ١/ ٥٠.

وبالمقابل جعل ﷺ كل داء في سقوط الهمم.

وكذلك أمر المسلمين حين ضاق اليوم، لا يفرجه ويوسعه إلا أصحاب الهمم العالية فحسب. ولذلك كان من تعاليم الإمام حسن البنا: **" أن تستصحب دائمًا نية الجهاد وحب الشهادة، وأن تستعد لذلك ما وسعك الاستعداد" ، "وأن تعتبر نفسك دائمًا جنديًا في الثكنة تنتظر الأمر"** [1].

وإنه لمعنى يفقهه من ذاق العلو، محجوب عمن يطلب السلامة.

قلت للصقر وهو في الجو عال اهبط الأرض فالهواء جديب

قال لي الصقر: في جناحي وعزمي وعنان السماء مرعى خصيب [2].

وهذا المرعى لا شك يجهله الأرضيون..!

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِۚ ﴾ [التوبة:٣٨].

"إنها ثقلة الأرض، ومطامع الأرض، وتصورات الأرض، ثقلة الخوف على الحياة والخوف على المال والخوف على اللذائذ والمصالح والمتاع، ثقلة الدعة والراحة والاستقرار، ثقلة الذات الفانية والأجل المحدود والهدف القريب، ثقلة اللحم والدم والتراب، والتعبير يلقي كل هذه الظلال بجرس ألفاظه: اثاقلتم. وهذه قراءة

(١) رسالة التعاليم، المجموعة / ٢٤.

(٢) لعبد الوهاب عزام في ديوان المثاني / ٣٥.

حفص، وهي أبلغ تصويرًا من القراءات التي ورد فيها: تثاقلتم. وهي بجرسها تمثل الجسم المسترخي الثقيل، يرفعه الرافعون في جهد فيسقط منهم في ثقل، ويلقيها بمعنى ألفاظه: ﴿ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾. ومالها من جاذبية تشد إلى أسفل وتقاوم رفرفة الأرواح وانطلاق الأشواق.

إن النفرة للجهاد في سبيل الله انطلاق من قيد الأرض، وارتفاع على ثقلة اللحم والدم، وتحقيق للمعنى العلوي في الإنسان وتغليب لعنصر الشوق المجنح في كيانه على عنصر القيد والضرورة، وتطلع إلى الخلود الممتد، وخلاص من الفناء المحدود: ﴿أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [التوبة:٣٨] ، وما يحجم ذو عقيدة في الله عن النفرة للجهاد في سبيله إلا وفي هذه العقيدة دخل، وفي إيمان صاحبها بها وهن. لذلك يقول الرسول ﷺ: (**من مات ولم يغز ولم يحدث نفسه بغزوٍ مات على شعبة من شعب النفاق**). **فالنفاق** –وهو دخل في العقيدة يعوقها عن الصحة والكمال– وهو الذي يقعد بمن يزعم أنه على عقيدة عن الجهاد في سبيل الله خشية الموت أو الفقر، والآجال بيد الله، والرزق من عند الله، ﴿مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾.

ومن ثم يتوجه الخطاب إليهم بالتهديد: ﴿إِلَّا تَنفِرُوا۟ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ

﴿كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [التوبة:٣٩]. والخطاب لقوم معينين في موقف معين، ولكنه عام في مدلوله لكل ذوي عقيدةٍ في الله. والعذاب الذي يتهددهم ليس عذاب الآخرة وحده؛ فهو عذاب الدنيا، عذاب الذلة التي تصيب القاعدين عن الجهاد والكفاح، والغلبة عليهم للأعداء، والحرمان من الخيرات واستغلالها للمعادين، وهم مع ذلك كله يخسرون من النفوس والأموال أضعاف ما يخسرون في الكفاح والجهاد، ويقدمون على مذابح الذل أضعاف ما تتطلبه منهم الكرامة لو قدموا لها الفداء "[(١)].

لذلك رأى المودودي ضرورة الصراحة ، فحسم أمر الهمة بألفاظ يظن القارئ أنها خشنة فقال: (**من دواعي الأسف أن الذين عندهم نصيب من القوى الفكرية والقلبية من النوع الأعلى من أفراد أمتنا هم مولعون بإحراز الترقيات الدنيوية، جاهدون في سبيلها ليل نهار، ولا يقبلون في السوق إلا على من يساومهم بأثمان مرتفعة ، وما بلغوا من تعلقهم بالدعوة إلى الاستعداد للتضحية في سبيلها بمنافعهم، بل ولا بمجرد إمكانيات منافعهم. فإذا كنتم ترجون، معتمدين على هذه العاطفة الباردة للتضحية، أن تتغلبوا في الحرب على أولئك المفسدين في الأرض الذين يضحون بالملايين من الجنيهات كل يوم في سبيل غاياتهم الباطلة، فما ذلك إلا حماقة**)[(٢)].

---

(١) في ظلال القرآن ١٠/ ٢٢٣.

(٢) تذكرة دعاة الإسلام/ ٥٦.

وبعد.. فإنا لا زلنا نعطيك جمهرة من أبلغ القول وأحسن الكلام، وقد قال الزاهد الثقة يحيى بن معاذ رحمه الله: إن "الكلام الحسن حسن، وأحسن من الكلام: معناه. وأحسن من معناه: استعماله. "فقم إلى استعماله يرحمك الله:

وخل الهوينا للضعيف ولا تكن نؤوما فإن الحزم ليس بنائم

وهذه كتيبة الحق قد دنت منك في سيرها بنشيد هادر:

قد نهضنا للمعالي ومضى عنا الجمود
ورسمناها خطى للعز والنصر تقود
فتقدم يا أخا الإسلام قد سار الجنود
ومضوا للمجد إن المجد بالعزم يعود (١)

وكأنك قد أصغيت، واستدركت قعودك، وعفت مساعيك لإحراز الترقيات الدنيوية جانبًا، وآمنت بأنها آتية إليك دونما جهد وحرص، ثم كأنك أخذت مكانك في الكتيبة السائرة، وبدأت تنشدهم مبايعًا:

مهما عتا الأقزام والأعبد
ولوحوا بالقيد أو هددوا
عن نصرة الإسلام هل أقعد

(١) لوليد في أغاني المعركة ١٠٦.

لا، ســـــوف أبقـــــى دائـــــمًا أنـــــشد
بفجـــــره لابـــــد يـــــأتي الغـــــد [1]

* * *

(٢) لوليد في أغاني المعركة ٧٦

11 العبد الحُر

إن مسلمًا نودي بالسير مع الهمم العالية، فانتفض، وأفلت من قيود الأرض، وحلق بجناح العزة: هو مسلم حري به أن يتم انتفاضته بخطوةِ تميزٍ واضحة.

أو كما قال سيد رحمه الله: إن **" أولى الخطوات في الطريق أن يتميز هذا المنهج ويتفرد، ولا يتلقى أصحابه التوجيه من الجاهلية الطامة من حولهم، كما يظل المنهج نظيفًا سليمًا، إلى أن يأذن الله بقيادته للبشرية مرة أخرى "** [1] ... وهذا يعني قيام مفاصلة شعورية وفكرية في ضمير المسلم، ينفصل فيها التحديد الإسلامي الواضح للمعاني الثلاثة المهمة المكونة لكل منهج، وهي: معنى الوطن، ومعنى الحاكم، ومعنى الدستور. عن الاطلاقات الجاهلية في تفسيرها، وعما بعد الإطلاق من اختلاف اجتهادات العقول. فالأمة الإسلامية قد حدد الله تعالى مقوماتها، وجعل: **" الجنسية فيها هي العقيدة. والوطن فيها هو دار الإسلام. والحاكم فيها هو الله. والدستور فيها هو القرآن.**

هذا التصور الرفيع للدار وللجنسية وللقرابة هو الذي ينبغي أن يسطر على قلوب أصحاب الدعوة إلى الله، والذي ينبغي أن يكون من الوضوح بحيث لا تختلط به أوضار التصورات الجاهلية الدخيلة،

---

(١) في ظلال القرآن ٤/ ٢١.

ولا تتسرب إليه صور الشرك الخفية؛ الشرك بالأرض، والشرك بالجنس، والشرك بالقوم، والشرك بالنسب، والشرك بالمنافع الصغيرة القريبة " [1].

وحملة الإسلام إنما ينطلقون بهذا المفهوم الإسلامي الواضح، ويعلنوه، دونما ملاطفة لأفكار الكفر الأرضية، ولا مهادنة، ولا محاولة استرضاء. وإنه لأمر جازم من الله لهم أن: ﴿فَٱدۡعُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ١٤﴾ [غافر].. **" ولن يرضى الكافرون من المؤمنين أن يخلصوا دينهم لله وأن يدعوه وحده دون سواه، ولا أمل في أن يرضوا عن هذا مهما لاطفوهم أو هادنوهم أو تلمسوا رضاهم بشتى الأساليب. فليمض المؤمنون في وجهتهم، يدعون ربهم وحده ويخلصون له عقيدتهم، ويصفون له قلوبهم. ولا عليهم رضي الكافرون أم سخطوا، وما هم يومًا براضين"** [2].

فما دامت هذه النتيجة حتمية، وأن الكافرين لن يرضوا عن المؤمنين، فليسلك الدعاة إذن ما يناسبهم من مقدمات ترد على تمرد الكفر ورفضه الإيمان.

ولن يكون هذا الرد غير التميز، والانفصال عنه.

طالما أنه ليس هناك لقاء، فإن المنطق يقتضي الانفصال إذن، كما فاصَلَ النبي ﷺ كفار قريش في العهد المكي، وكما فاصل كل القبائل

---

(١) معالم في الطريق / ١٤٦.

(٢) في ظلال القرآن ٢٤/ ٦٠.

بعد الهجرة. ولم تكن تلك المفاصلة النبوية الكريمة مجرد اضطرار لجأ إليه في حقبة تاريخية تبدو لنا آخذة دورها في تسلسل تاريخ الدعوة النبوية، وإنما كانت حقيقة إيمانية ودلالة نعمة ربانية، من شأنها أن يلتفت لها المؤمنون. وتلمس هذا في أن رسول الله ﷺ كان يذكرهم بها، ويتخذها عاملًا تربويًا للذين معه، فيقول لما صلى بهم يومًا صلاة العشاء قريبًا من نصف الليل: (**أبشروا أن من نعمة الله عليكم، إنه ليس من الناس أحد يصلي هذه الساعة غيركم**) [1]، وذلك " **قبل أن يفشو الإسلام في الناس** " [2] كما يقول الراوي.

إنه جعلها بشرى ونعمة ربانية، وكذلك تربى نفوس المؤمنين على معاني الاستعلاء، وتوكيد إلحاحهم في تحدي الجاهلية كلها مهما فشت وعمت وانتشرت وكثر أصحابها، ومهما قل عدد المسلمين وانحصروا في دويرة صغيرة، كما كانوا في دويرة المدينة ومن حولهم هذه الجزيرة العربية الواسعة الأطراف، الكثيرة القبائل.

والمس عظم أثر هذه التربية، وتحولها إصرارا وثباتا في الدين، وتجديدُ عزمٍ على المضي، حين يقول من سمع هذه البشرى: " **فرجعنا فرحين بما سمعنا من رسول الله** ﷺ "... فتصور هذه الدويرة الإسلامية المتميزة في الجزيرة الكافرة. كانت هناك طليعة إسلامية "**تزاول نوعًا من العزلة من جانب، ونوعًا من الاتصال من الجانب**

---

(١) صحيح مسلم ٢/ ١١٧.

(٢) صحيح مسلم ٢/ ١١٥.

الآخر بالجاهلية المحيطة " [1] ، وهي في الحقيقة استمرار للمفاصلة التي كانت في العهد المكي، فظهرت في المدينة بصورة كاملة واضحة. وما كانت نفوس المسلمين لتصبر في المدينة على لوازم هذه المفاصلة لو لم تكن قد ربيت قبل الهجرة تربية صلبة عميقة على أولوياتها ومقدماتها، فيومها: **" في مكة، لم تكن للإسلام شريعة ولا دولة ولكن الذين كانوا ينطقون بالشهادتين كانوا يسلمون قيادهم من فورهم للقيادة المحمدية ويمنحون ولاءهم من فورهم للعصبة المسلمة، كما كانوا ينسلخون من القيادة الجاهلية ويتمردون عليها، وينزعون ولاءهم من الأسرة والعشيرة والقبيلة والقيادة الجاهلية بمجرد نطقهم بالشهادتين "** [2].. كان **" الإسلام هو تلك الحركة المصاحبة للنطق بالشهادتين، هو الانخلاع من المجتمع الجاهلي وتصوراته وقيمه وقيادته وسلطانه وشرائعه، والولاء لقيادة الدعوة الإسلامية وللعصبة المسلمة التي تريد أن تحقق الإسلام في عالم الواقع "** [3] ، فلما تجلى هذا التميز بصورة أوضح في المدينة صار المجتمع الإسلامي منارًا واضحًا في تلك الصحراء، يأوي إليه الهائم والمتشكك، ومن يحتدم في قلبه الصراع بين الإيمان والكفر الموروث.

---

(١) معالم في الطريق / ٩.

(٢) في ظلال القرآن ٩/ ٢٨٠.

(٣) المرجع السابق نفسه.

فلما اتسع المجتمع الإسلامي، وانتصر، ودانت كل الجزيرة بدين الله استمرت هذه الحاجة إلى مفاصلة بقايا الجاهلية المتماثلة ببقايا النفاق واتباع الشهوات.

وهي مفاصلة ثانية، واجبة أيضًا؛ فكما أن المفاصلة الأولى أفادت في إيجاد عزة الإيمان في نفوس المفاصلين، وفي جعل المدينة منارًا يأوي إليه الحائر، فإن المفاصلة الثانية كانت ضرورية للحفاظ على نقاوة جهاز دولة الإسلام، المحافظ على سمات حكمه وفقهه وتربيته وفتوحة، ومن هنا دعا عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى هذه المفاصلة الثانية بعبارة جامعة رائعة فقال: **(إن لله عبادًا يميتون الباطل بهجره، ويحيون الحق بذكره)** [1].

وقد استعمل كلمة الهجر للدلالة على المفاصلة التي نعنيها، وهذا يعني: أن عنصر النفاق واتباع الشهوات كلما زاد في المجتمع زادت هذه الحاجة إلى هذا النوع الثاني من المفاصلة، بعملية طردية، ليبقى الباطل باطلًا مشارًا إليه بأصبع الاتهام، ولئلا يحيله التقادم إلى حق موهوم في ذهن الذين لا يعون، فينطلي زوره، وينسى الناس اعوجاجه، ولئلا تستسيغه النفوس من بعد، حين يطول الأمد.

ولذلك فإن الدعوة الإسلامية اليوم لابد لها إزاء زيادة النفاق والفسق واتباع الشهوات في المجتمع الحاضر من هذه المفاصلة، ومن هذا التميز، بشكل واضح صريح، لتبقى الصورة الإسلامية جلية واضحة بدورها،

(١) كتاب الخراج لأبي يوسف ١٣.

يمكن أن ينظر إليها من يبتغي النظر إليها، ممن تحفزهم كلمات الدعاة لمحاولة اكتشاف أبعاد هذه الصورة، والتفتيش عنها وتلمس مثل تطبيقي لها.

و الحقيقة أنه وإن افتقد الدعاة في هذا القرن صورة حكم إسلامي يصلح مثلًا لتطبيق الإسلام، إلا أن هذا المثل يمكن أن يتجلى في بعض أشخاص من الدعاة، تتضح فيهم معاني الإسلام، ويكتسبون من هيبته، ويبلغون الذورة في الإيمان والتجرد وتطبيق السنة النبوية الشريفة. وهذا هو معنى (القدوة) في صورتها البسيطة.

إن وجود (القدوة الإسلامية) يعني وجود شخص يدرك الناظر إليه أنه مستقل في فكرته وعقيدته، وسكناته وحركاته، عما حوله، منفصل عنهم، تميزه الأبصار قبل المعاملة، بما تعلوا وجهه من معالم السكينة والهيبة والحزم التي شاء الله أن ينفرد بحيازتها المسلم دون غيره، فيعوض بذلك عن صورة الحكم الإسلامي المفتقد، ويكون بديلًا لها، وبرهانًا على أن الإسلام قادر أن ينتج مثل هذه النماذج الإنسانية الرفيعة، أو بالأحرى يكون برهانًا على أن مثل هذه النماذج لا ينتجها غير الإسلام.

وأبو القاسم الجنيد رحمه الله يعبر عن هذا الانفصال للقدوة الإسلامية بعبارة (الحرية عما سوى الله)، أي ليس بينه وبين ما سوى الله رابط أو قيد أو نسب أو ميل أو رغبة، بل هي الحرية بمدلولها الذي يفهمه كل حر، فيقول: **" لا يكون العبد عبدًا حتى يكون مما سوى الله تعالى**

حرًّا"[1] ويعبر مرة أخرى عن هذا الانفصال بأنه "**عبودية الأحرار**" أو "**حرية العبيد**"، فيصوغ سطرًا بليغًا رفيعًا يغني عن عشر مجلدات، ويقول: "**إنك لا تصل إلى صريح الحرية، وعليك من حقيقة عبوديته بقية**".

فلأن الإسلام كله عبودية لله تعالى، فإن العبد التام العبودية الذي سماه الجنيد، هو وحده الحر في هذا الوجود دون غيره من أسارى الشهوات واجتهادات العقول القاصرة، وهذا التعبير الجميل ورثه الجنيد عن أفضل الزهاد العباد: الفضيل بن عياض رحمه الله؛ إذ أبرز الفضيل بمقابل الحرية مما سوى الله: واجب المسلم في تجريد الربانية له واطراح كل ربانية لأحد من الخلق يريد أن يفرضها عليه بثمن مادي، أو بالقسر والإكراه، فيقول الفضيل: "**والله، ما صدق الله في عبوديته من لأحد من المخلوقين عليه ربانية**"[2]. فالمسلم يفرد الله بالعبادة، وإفراده بالعبادة يقتضي أن يعلن بصراحة ووضوح براءته مما يعبد الغير، ومما يشرعون لأنفسهم، ويجهر بذلك مفاصلًا، كما فاصل نبي الله هود عليه السلام قومه بقوله: ﴿إِنِّيٓ أُشۡهِدُ ٱللَّهَ وَٱشۡهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ٥٤ مِن دُونِهِۦۖ فَكِيدُونِي جَمِيعٗا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ٥٥ إِنِّي تَوَكَّلۡتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمۡۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٥٦ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُم مَّآ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦٓ إِلَيۡكُمۡۚ وَيَسۡتَخۡلِفُ رَبِّي قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيۡـٔٗاۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَفِيظٞ ٥٧﴾ [هود].

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية ١٠/ ٥٩٨.

(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية ١٠/ ٥٩٩.

"إنها انتفاضة التبرؤ من القوم -وقد كان منهم وكان أخاهم- وانتفاضة الخوف من البقاء فيهم وقد اتخذوا غير طريق الله طريقًا. وانتفاضة المفاصلة بين حزبين لا يلتقيان على وشيجة، وقد انبتت بينهما وشيجة العقيدة. وهو يشهد الله على براءته من قومه الضالين وانعزاله عنهم وانفصاله منهم، ويشهدهم هم أنفسهم على هذه البراءة منهم في وجوههم، كي لا تبقى في أنفسهم شبهة من نفوره وخوفه أن يكون منهم.

وذلك كله مع عزة الإيمان واستعلائه، ومع ثقة الإيمان واطمئنانه!

وإن الإنسان ليدهش لرجل فرد يواجه قومًا غلاظًا شدادًا حمقى، يبلغ بهم الجهل أن يعتقدوا: أن هذه المعبودات الزائفة تمس رجلًا فيهذي، ويروا في الدعوة إلى الله الواحد هذيانًا من أثر المس! يدهش لرجل يواجه هؤلاء القوم الواثقين بآلهتهم المفتراه هذه الثقة، فيسفه عقيدتهم ويقرعهم عليها ويؤنبهم، ثم يهيج صراوتهم بالتحدي لا يطلب مهلة ليستعد استعدادهم، ولا يدعهم يتريثون فيفثأ غضبهم.

إن الإنسان ليدهش لرجل فرد يقتحم هذا الاقتحام على قوم غلاظ شداد، ولكن الدهشة تزول عندما يتدبر العوامل والأسباب.

إنه الإيمان، والثقة، والاطمئنان. والإيمان بالله، والثقة بوعده، والاطمئنان إلى نصره، الإيمان الذي يخالط القلب، فإذًا وعْدُ الله بالنصر حقيقة ملموسة في هذا القلب لا يشك فيها لحظة، لأنها ملء

يديه، وملء قلبه الذي بين جنبيه، وليست وعدًا للمستقبل في ضمير الغيب، إنما هي حاضر تتملاه العين والقلب "[1].

﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾﴾ ..

فهي القوة والاستقامة والتصميم.

وفي هذه الكلمات القوية الحاسمة ندرك سر ذلك الاستعلاء وسر ذلك التحدي. إنها ترسم صورة الحقيقة التي يجدها نبي الله هود عليه السلام في نفسه من ربه . أنه يجد هذه الحقيقة واضحة. إن ربه ورب الخلائق قوي قاهر: ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآ﴾، وهؤلاء الغلاظ الأشداء من قومه إن هم إلا دواب من تلك الدواب التي يأخذ ربه بناصيتها ويقهرها بقوته قهرًا، فما خوفه من هذه الدواب وما احتفاله بها، وهي لا تسلط عليه -إن سلطت- إلا بإذن ربه؟ وما بقاؤه فيها وقد اختلف طريقها عن طريقه؟

إن هذه الحقيقة التي يجدها صاحب الدعوة نفسه، لا تدع في قلبه مجالًا للشك في عاقبة أمره ، ولا مجالًا للتردد عن المضي في طريقه.

إنها حقيقة الألوهية كما تتجلى في قلوب الصفوة المؤمنة أبدًا"[2].

وقد فقه الإمام البنا رحمه الله هذه النظرية في المفاصلة، فنادى بوجوب تربية النشء وفق معانيها، وأوضح أن مستقبل الإسلام

---

(١) في ظلال القرآن ١٢/ ٩٧، ٩٨.

(٢) المرجع السابق نفسه .

إنما يعتمد على " هذا النشء الجديد، فأحسنوا دعوته، وجدوا في تكوينه، وعلموه استقلال النفس والقلب، واستقلال الفكر والعقل، واستقلال الجهاد والعمل، واملئوا روحه الوثابة بجلال الإسلام وروعة القرآن، وجندوه تحت لواء محمد ورايته، وسترون منه في القريب الحاكم المسلم الذي يجاهد نفسه ويسعد غيره "[1]... فهو قد عبر عن المفاصلة بالاستقلال، كما عبر عمر بن الخطاب رضي الله عنه عنها بالهجر. فاستقلال النفس والقلب هو المفاصلة الشعورية في الضمير، والعزة والاستعلاء.

واستغلال الفكر هو عدم خلط الشريعة بالتصورات الأرضية المبتدعة التي أضلت الأحزاب. واستقلال العمل هو التميز في الصف، وترك الأحلاف. وكما أنها مهمة هؤلاء الدعاة في تربية النشء، فإنها مهمتهم في وجوب الانتباه لنفوسهم، والثبات على هذه المفاصلة. أو كما قال الإمام: " **لا تصغروا في أنفسكم، فتقيسوا أنفسكم بغيركم، أو تسلكوا في دعوتكم سبيلًا غير سبيل المؤمنين، أو توازنوا بين دعوتكم التي تتخذ نورها من نور الله، ومنهاجها من سنة رسوله، بغيرها من الدعوات التي تخلقها الضرورات، وتذهب بها الحوادث والأيام**"[2]. ومن مكملات ذلك وضروریاته حفظ صفاء الابتداء ونقاوته، وكما يجب على الداعية أن يحفظ لمن يدعوهم الهمة، ويسيرهم مع الهمم العالية، فإن عليه أن يحفظ لهم صفاء الابتداء، فإن

(١) تحت راية القرآن، المجموعة / ٣١٩، ٣٢١.

(٢) المرجع السابق نفسه.

الأيام الأولى للسير في طريق الدعوة تحسم مدى الصفاء مثلما تحسم منزلة الهمة.

إن من يفتح عينه على المفاهيم الإسلامية النقية المستمدة من القرآن والسنة فحسب غير المشوبة بترهات غير إسلامية فإنه يبدأ وينشأ ويشب ويشيب ويموت على هذه المفاهيم، ومن سقي المخاليط ذات الشوائب صعبت عليه التنقية بعد.

ولقد وعى أبو القاسم إبراهيم بن محمد النصر آباذي المتوفى سنة ٣٦٧ هـ هذا المعنى أروع الوعي فقال:

"ما ضل أحد في هذا الطريق إلا بفساد الابتداء، فإن فساد الابتداء يؤثر في الانتهاء".

فأحسن البداية وأتقنها يا داعية الإسلام.

12 قصص من لهو الدعاة

ما كان لأهل الحركة الإسلامية ومن حولهم من ناشئة الابتداء أن يتخلفوا عن السير نحو أفراح الآخرة، ولا يرغبوا بأنفسهم عن حاجات الدعوة، ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب، ولا غبار في سبيل الله، ولا يتكلمون كلمة تغيظ الأحزاب الأرضية ولا ينالون من ملحد نيلا إلا كتب لهم به عمل صالح، إن الله لا يضيع أجر المحسنين؛ ولا ينفقون نفقة من التعب صغيرة أو من الهول كبيرة، ولا يجوبون محلة أو مدرسة أو جامعة أو مصنعًا إلا كتب لهم، ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون.

وكيف يلتذ داعية براحة وهم قد لقنوه من أول يوم أن ينشد:

في ضميري دائمًا صوت النبي آمرًا: جاهد وكابد واتعب

صائحًا: غالب وطالب وادأب صارخًا: كن أبدًا حرًا أبي

و كيف يميل إلى استرخاء، وأصحابه يهتفون:

نَبني ، ولا نتكل نفنى، ولا ننخذل

لنا يد والعمل لنا غد والأمل

إن حرية الداعية، والأمل الذي يستيقنه: يدفعان به دفعًا إلى البذل السخي.

* علو في الحياة

حرية.... وأمل

حرية تكسر قيود الشهوات

و أمل بالأجر، وثقة بالنصر

كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في ميزان التصارع العقائدي، كانتا دومًا في تاريخ التوحيد الطويل، تأخذان التعب من أجيال الدعاة من النبيين والصديقين والراشدين والتابعين ومن لحقهم بإحسان على مر القرون، فكلهم بالتعب كانوا يفرحون يأبون إلا العلو في الحياة، ونحن إن شاء الله بهم لمقتدون.

كان تعبهم يتمثل أحيانًا بحركة يومية دائبة في الإنذار والتبشير، والتجميع والتبصير، أو سهرًا على رعاية مصالح المسلمين. ويتمثل أحيانًا في انكباب على التعلم واجتياز المفاوز لحيازة حديث أو كلمات فقه.

ويتجسد في أخرى قتالًا وتحفيزًا دائمًا لجهاد وعلو موت.

وفي أخرى إشغالًا للفكر في التخطيط.

فإن أخذوا راحة، واستلقوا على ظهورهم لبث ذهنهم يصطاد الخاطر.

وكل ذلك حكى التاريخ، ليتعلم الدعاة اليوم.

* نطق بالليل والنهار

فأول من يطالعنا: الأنبياء عليهم السلام. كان لسانهم ناطقًا بالليل والنهار، والإعلان والإسرار.

قال تعالى مخبرًا عن نوح عليه السلام:

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا﴾ [نوح:٥].

ثم قال: ﴿ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٩﴾﴾ [نوح].

* ونطق أثناء خطوات الهجرة:

"والواقع أن الداعي إذا كان صادقًا في دعوته منشغلًا بها، لا يفكر إلا فيها، ولا يتحرك إلا من أجلها، ولا يبخل عليها بشيء من جهده ووقته لم يشغله عنها شاغل أبدًا حتى في أحرج الساعات وأضيق الحالات وأدق الظروف، وهكذا كان رسولنا محمد ﷺ فعندما هاجر إلى المدينة ومعه أبو بكر الصديق رضي الله عنه لقي في طريقه بريدة ابن الحصيب الأسلمي في ركب من قومه فيما بين مكة والمدينة، فدعاهم إلى الإسلام فأسلموا. وهذ يدل أنه عليه الصلاة والسلام لم يغفل عن الدعوة إلى الله حتى وهو في طريقه مهاجرًا إلى المدينة والقوم يطلبونه" [1].

---

(١) أصول الدعوة / ٢٨٤.

* ونطق في السجن

"ويوسف عليه السلام عندما دخل السجن مظلومًا لم يشغله السجن وضيقه عن واجب الدعوة إلى الله ولهذا فقد اغتنم سؤال السجينين عن رؤيا رأياها، فقال لهما قبل أن يجيبهما ما أخبرنا الله به: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ٣٩﴾ [يوسف] [1].

* الراشد يمنع النوم

وقاربهم الصديق أبو بكر رضي الله عنه حتى قال عند وفاته: **" والله ما نمت فحلمت، ولا توهمت فسهوت، وإني لعلى السبيل ما زغت"** [2]. يعني أنه قد شغلته حروب الردة والفتوح وأرهقه إرساء جهاز الدولة، حتى أنه ما كان ليستغرق في نومه ليتاح له أن يحلم، وظل يزاد بعد النبي ﷺ في الصديقية ليهبه الله تعالى يقظة أثناء هذا التعب تبعد عنه الوهم والسهو.

* الترابي.....!

ويترجم عبدالله بن عباس رضي الله عنه انغماسه في صورة جمع بين التواضع والصبر على مشقة التعلم وجمع الحديث، حتى أن الريح لتسفي عليه التراب، يرجو بذلك أن يستنشق نسمات الجنة، ويجتاز الصراط بلا حساب.

---

(١) أصول الدعوة / ٢٨٤.

(٢) الخراج لأبي يوسف / ١١.

واسمعه يروي ما كان منه ويقول: (**أقبلت أسأل أصحاب رسول الله ﷺ عن الحديث ، فإن كان ليبلغني الحديث عن الرجل فآتي بابه وهو قائل، فأتوسد ردائي على بابه، تسفي الريح عليَّ التراب، فيخرج فيقول لي: يا ابن عم رسول الله ما جاء بك؟ ألا أرسلت إليَّ فآتيك؟ فأقول: لا، أنا أحق أن آتيك، فأسأله عن الحديث**) [1]. ولو شاء أن يوقظوه لأيقظوه له مع الفرح، ولكن الهمم العالية تطرب لصفير الرياح ولفحات التراب.

* هواية رفع الأثقال

والداعية اللبيب يسابق أصحابه لحمل كل ثقيل من الأمور؛ فيكون يوم الجمع صاحب الميزان الثقيل، كما تسابق النخعيون يوم معركة القادسية. قال أحد الصحابة منهم: " **أتينا القادسية، فقتل منا كثير، ومن سائر الناس قليل، فسئل عمر عن ذلك فقال: أن النخَع ولُّوا عِظَم الأمر وحدهم** " [2].

وما كان أحد ممن حضر القادسية إلا وأبلى، ولكن الدعاة إلى الله لهم هواية التسابق في رفع الأثقال.

* حصن التربية الأسدية

والذروة يعلوها التابعي العابد الفقيه المحدث الجليل أبو وائل شقيق بن سلمة الأسدي، نتاج تربية الأربعة الراشدين وابن مسعود

---

(١) طبقات ابن سعد ٢/ ٣٦٨.

(٢) الإصابة ١/ ٢٨.

وسعد بن أبي وقاص وغيرهم، فإنه عاف التجارات والبيوت وبنى له في الكوفة حصنًا صغيرًا يسعه هو وفرسه وسلاحه فقط، وبقي طول عمره متحفزًا للجهاد، حتى لم يعد يعرف موازين السوق التي يتعامل بها الناس [1]. تجرد حق التجرد، فأنتج حق الإنتاج ذرية تجرد تتبعه، يعلم الدعاة بذلك طريق إنتاج الرجال باستخدام وسائل الإيضاح البصرية المجسدة.

أنتج أبو وائل أمثال: سليمان الأعمش، ومنصور بن المعتمر، وحصين بن عبد الرحمن، وعمرو بن مرة، وغيرهم من فحول المحدثين.

إن من لا يفهم التربية يظن أن بناء هذا الحصن من التكلف والرياء، وما هو كذلك.

* ذهب الفراغ....!

ويموت شقيق الأسدي مع نهاية قرن الخير الأول، فيبادر الراشد الخامس عمر بن عبدالعزيز إلى ضرب الأمثال.

تصفه زوجه فاطمة بنت عبد الملك فتقول:

" كان قد فرّغ للمسلمين نفسَه، ولأمورهم ذهنه، فكان إذا أمسى مساءً لم يفرغ فيه من حوائج يومه وصل يومه بليلته " [2].

---

(١) كتاب الثقات لابن حبان / ١٠٨.

(٢) سيرة عمر لابن عبد الحكم / ١٤٦.

يضرب المثل بذلك لداعية الإسلام، إن أراد أن يصدق دعوته ويؤدي الأمانة.

صِدق الداعية: أن يجدد أطوار عمر فيفرغ نفسه للمسلمين، فلا تجد له حركة دنيوية إلا بمقدار ما توجبه ضروريات إطعام عياله. ويفرغ ذهنه، فليس فيه إلا تفكر بمصالح الدعوة.

ويعترض أصدقاءٌ قدماء لعمر، من أصدقائه قبل الخلافة يوم كان فارغا، يودون أن تكون لهم معه جلسة يعيدون فيها الذكريات، فيقولون: " **لو تفرغت لنا** "، فيقول: "**وأين الفراغ؟ ذهب الفراغ فلا فراغ إلا عند الله** " [1].

يلقنها لمن يدخل الدعوة بعده إذا دعاهم رفاق الأمس إلى قتل الأوقات.

* موفق يجوب بحقيبة العلم راجلاً

ويستمر تلامذة أحمد بن حنبل، وأتباع مذهبه من بعده، يضعون وسائل الإيضاح البصرية في الاستخدام التربوي، فإنهم كما وصفهم الفقيه النحوي ابن عقيل: " **غلب عليهم الجد، وقل عندهم الهزل**"[2].

فمن تلامذته: الحافظ الإمام الفقيه الزاهد المحدث: إسحق ابن منصور المعروف بالكوسج، شيخ البخاري ومسلم وغيرهما. كان

(١) طبقات ابن سعد ٥/ ٣٩٧.

(٢) ذيل طبقات الحنابلة ١/ ١٥٢.

يسكن نيسابور بخرسان، فرحل إلى بغداد ودوَّن عن أحمد بن حنبل مسائل في الفقه كثيرة، ورجع إلى نيسابور، ثم إنه: (**بلغه أن أحمد ابن حنبل رجع عن بعض تلك المسائل، فحملها في جراب على كتفه، وسافر راجلًا إلى أحمد، ثم عرض خطوط أحمد على كل مسألة استفتاه عنها فأقرَّ له بها وأعجب به**) [(١)]... وأحدنا الآن يجلس على أريكته وبجنبه مسند أحمد مطبوعًا محققًا مجلدًا مذهبًا يتكاسل أن ينظر فيه.

* الحنابلة يحفظون السمت

ويرسم ابن عقيل، النحوي الفقيه الحنبلي، صورة الداعية الذي لا تكون خطراته وسبحات فكره - بل أحلامه إذ ينام - إلا في الدعوة، ويجلي ذلك بقوله: " **إني لا يحل لي أن أضيع ساعة من عمري، حتى إذا تعطل لساني عن مذاكرة ومناظرة، وبصري عن مطالعة أعملت فكري في حال راحتي وأنا مستطرح** "[(٢)]... فانظر، كم ساعة من نهارك وليلك تضيع سدى؟

وخلفه الشيخ الزاهد الفقيه محمد بن أحمد الدباهي. قالوا: (**لازم العبادة، والعمل الدائم والجد، واستغرق أوقاته في الخير.. صَلْبٌ في الدين، وينصح الإخوان، وإذا رآه إنسان عرف الجد في وجهه**) [(٣)].

---

(١) تذكرة الحافظ للذهبي ٢/ ٥٢٤.

(٢) ذيل الطبقات الحنابلة ١/ ١٤٦، ٢/ ٣٦١.

(٣) المرجع السابق نفسه.

وهكذا يجب أن تكون دائمًا علامة الدعاة سيماهم في الجد ظاهرة في وجوههم، لا يخطؤها النظر.

ليس لهم نصيب من الهزل والضحك والبطالة.

* أصحاب الإمام البنا يجددون

وجدد جيل هذا القرن من الدعاة في مصر تلك الصور الرائعة القديمة، ليبرهنوا أن الإسلام الذي أنتج أولئك لا يزال حيًا.

يصف الإمام حسن البنا أصحابه فيقول:

(قد سهرت عيونهم والناس نيام، وشغلت نفوسهم والخليون هجع، وأكبَّ أحدهم على مكتبه من العصر إلى منتصف الليل، عاملًا مجتهدًا، ومفكرًا مجدًا، ولا يزال كذلك طول شهره، حتى إذا ما انتهى الشهر جعل مورده موردًا لجماعته، ونفقته نفقة لدعوته، وماله خادمًا لغايته، ولسان حاله يقول لبني قومه الغافلين عن تضحيته: ﴿لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ﴾ [هود:٢٩]) [(١)].

* وعلو في الممات..!

وكما في مصر، كان من رعيل العراق الأول: أبو صفوان الدباغ صاحب رسالة (**مع الناشئة**)، الرسالة الصغيرة البسيطة جدًا، الطريفة جدًا.

---

(١) إلى أي شيء ندعو الناس، المجموعة / ١٢٩.

حدثني الثقة من أقرانه، قال: (**كان مريضًا بالسرطان، واشتد مرضه سنة اثنتين وخمسين وتسعمائة وألف، فرقد في المستشفى أيامًا، وكأنه أحسَّ بلحظات حياته الأخيرة، فطلب مواجهة قائد الدعوة آنذاك، فجاءه ومعه بعض الدعاة - فِيهِم راوي القصة - فأعلمهم بقرب موته، وشهد أن لا إله إلا الله، وقرأ شيئًا من القرآن، وصافح يد القائد، وأعلن تجديد بيعته وثباته على هذه الدعوة وحمَّلهم السلام إلى من كان من الدعاة آنذاك وإلى من سيلتحق بعد، ثم أعاد الشهادة ومات من فوره، بعد تجديد بيعته بقليل ...**) رحمه الله .

فتأمل...

هذه منقبة لا يرزقها إلا من كان توجهه صادقًا في حياته.

وتأمل علو همته. كأنه في قاعة مطار يودع أو على رصيف محطة قطار.

أخ لك سابق غادر الحياة ولعلك لم تولد بعد يحييك ويبلغك السلام، ويطلب منك الثبات على هذه الدعوة التي جربها في آخر لحظات حياته فوجد لذة السير إلى من أنعم بها على عباده.

إن في ذلك لعبرة تغني اللبيب عن كثير من الكلام المنمق والبلاغة المتكلفة.

حقًّا، إن الهمم مراتب، ولا تعلو همة في نهايتها وعند موتها إلا إذا علت في بدايتها.

وقائع وقصص يمرُّ بها الداعية يأخذ منها الدروس والعبر، والهُمام من يقول: **اللهم اجمعنا وإياهم في دار كرامتك.**

وكذلك نقصص القصص لدعاة الإسلام لعلهم يقتدون.

وانتظر (البوارق)

الذي سيكون إن شاء الله مدونة للحماسة شاملة، مبينا معاني الجهاد؛ كمنهج الدعوة، وواجب على الداعية، وارتباطه بالفقه، مع استعراض قصص من بطولات العلماء والدعاة، وفصول في الحث على البذل والتضحية، والترغيب في التشمير للخير وإتعاب الأبدان، وإنفاق الأوقات في تجميع الشباب.

وتوجيههم للنهي عن المنكر ومقارعة الظالمين .

* * *